مقـدّمـة عـامة في الإعلام

.....

الإعلام هو عملية اتصال.

إذ لا إعلام دون الاتصال بالآخرين على صورة من الصور. ولما كانت الحضارة، أي حضارة، هي حصيلة الاتصالات التي تجري بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والأشياء من حوله فإنّ من الطبيعي أن نقرر بأنّ الحضارة هي حصيلة عملية إعلامية.

والإعلام لا يمارس عمليات الاتصال ما لم يستعن بنوع أو بأنواع معينة من الرموز. وتأتي الكلمات الملفوظة أو المكتوبة، أو المسموعة، في مقدمة الرموز التي يتحقق بها الإعلام والجدير بالذكر أنّ الامتياز الذي امتاز به آدم عليه السلام وعبر عنه القرآن الكريم بكلمة "أسماء" التي تعلّمها آدم من ربه: هو أنّه كائن يتمتع بالقدر على الإعلام لأنه يتمتع بالقدرة على تسمية الأشياء وبالتالي على التعبير عن نفسه والاتصال بغيره ليمارس خلافته في الأرض.

وقد كان من أهمية هذا الامتياز الذي انتقل إلى أبناء آدم وبقي حتى اليوم، على صورة المتعددة وسيلة وحيدة لاستمرار الحضارية البشرية، مسيرة متحركة نامية نحو المستقبل، أنّ الله عز وجل أمر ملائكته بالسجود لآدم عليه السلام، فسجدوا لا طاعة لله عز وجل فقط، وهذا أمر مفروغ منه، بل لأنهم اكتشفوا في معرفة آدم للأسماء التي تعلمها من ربه ما يميزه حقاً من المخلوقات السابقة عليه تلك التي كانت كما تقول الملائكة: (تفسد في الأرض وتسفك الدماء)..

****

ولو أننا تدبرنا النص القرآن وقابلنا اتهام الملائكة للمخلوقات السابقة على أبي البشر بسجودهم له طاعة لأمر الله وتعبيراً عن إعجابهم به وبامتيازه من غيره من المخلوقات، لتبين لنا أنّ الإعلام الآدمي الذي هو حصيلة المعرفة بالأسماء هو مصدر للنقاء والتهذيب والبراءة من الفساد وسفك الدماء أي أنّه الوسيلة الممكنة لتقدم الإنسان وانتقاله نحو الأحسن والأكمل.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

والواقع أنّ الإعلام كعلم أو فن اتصالي لم تتقرّر قواعد، ولم تتعين أصوله، ثم لم يوضع في خانة العلوم أو الفنون، التي تعين لها المناهج الدراسية الخاصة وتمنح نتيجة لها الإجازات الجامعية العليا، لم يعرف إلا منذ فترة قصيرة نسبياً لكن الإعلام كحقيقة بشرية وكظاهرة صيغت في ظلها الحضارات وتمت في ضوئها المفاعلات والمبادلات، المادية والأدبية بين الأفراد أو بين الشعوب هو ظاهرة حضارية نشأت مع نشوء الإنسان الأول أنّ خطاب الله إلى الملائكة، ثم خطابه إلى آدم عليه السلام، هما عمليتان إعلاميتان إذ لا سبيل إلى تعليم الملائكة وإظهارهم على امتياز آدم، المخلوق الجديد، الذي جعل خليفة في الأرض، كما لا سبيل إلى تعليم آدم نفسه حقيقة الأسماء بنوع معين من الرموز إلا بعملية اتصالية هي ما يطلق عليها اليوم اسم "الإعلام"..

وبتتابع الأجيال الآدمية اللاحقة تتابعت العمليات الاتصالية التي يتم بها تبادل الأفكار والخبرات ونشر الدعوة إلى الله، والحض على مقاومة النفوس الأمارة بالسوء والفحشاء. ولا شك أنّ ظاهرة التقدم الحضاري التي هي حصيلة تراكمات تاريخية من ناحية ومكاسب جديدة مع كل جيل جديد: لا يمكن أن تتحقق إلا بفضل الاتصال بين الكبار والصغار، أو بين الماضي والحاضر.

****

والثابت أنّ الاتصال الإعلامي قديم على صور متعددة وإن كانت الصورة الكلامية الملفوظة والمكتوبة تعتبر أعلى هذه الصور وأعظمها خدمة لمسيرة الحضارة البشرية وأكثرها فضلاً في نقل خبرات الماضين من الناس إلى أبناء الحاضر ثم المستقبل.

وفيما بقي لنا من أثار الماضين تبين لنا أنّ الرسم على الحجر هو من أقدم الصور التي تعبر عن ظاهرة الإعلام البشري. ولما كان الإعلام بالرسم عاجزاً عن تحقيق الاتصال المطلوب لنقل الخبرات الإنسانية من جيل إلى جيل، ولتحقيق التفاهم الدقيق بين أفراد المجموعة المتعايشة من الناس فقد جهد الإنسان في البحث عن وسيلة أكثر فاعلية وقدرة على الآداء فكانت اللغة الملفوظة والمكتوبة التي لا تزال حتى اليوم الوسيلة الاتصالية العليا بين الناس في الجيل الواحد وبين الأجيال في الأزمنة المتعاقبة.

****

ولا يُرَدّ علينا أنّ التكنولوجيا العصرية قد استطاعت أن تحقق إنجازات مدهشة في العمليات الاتصالية وذلك لأنّ هذه الانجازات قد حققت عمليات تسارع في الاتصال الإعلامي لم تكن متوفرة من قبل لكن اللغة المكتوبة أو الملفوظة لا تزال حتى اليوم الوسيلة الفضلى والأكثر فاعلية في تحقيق العمليات الاتصالية أو الإعلامية.

****

لقد كانت الصروح والأبنية الضخمة والكتابات والرسوم المسجلة عليها، بالإضافة إلى الحوار المباشر بين الفرد والفرد أو بين الفرد والجماعة، كما كانت الكتابة على الرقوق والعظام ثم على الورق الوسائل المتوفرة للاتصال الإعلامي. وقد بقيت هذه الوسائل أدوات اتصالية إعلامية وحيدة حتى جاء عصر الصناعة والتكنولوجيا المتطورة فإذا بالعلماء المخترعين يخرجون إلى الناس بأجهزة دقيقة ذات قدرة فائقة على اختصار الزمن في تحقيق الاتصالات الإعلامية مما أعطى الإعلام فاعلية على مستوى الكرة الأرضية كلها بادىء الأمر ثم أصبحت هذه الفاعلية على مستوى مسافات شاسعة في الفضاء الخارجي.

****

والجدير بالذكر أنّ التطور التكنولوجي في أجهزة الاتصال الإعلامي قد رافقه تطور في فهم النفوس البشرية، ومهارة في التعامل معها، وقدرة فائقة على تحريك الأفراد والجماعات فنتج عن ذلك أنّ دولة في أقصى الأرض تملك هذه الأجهزة الاتصالية المتطورة قادرة على ممارسة التأثير المطلوب في شعوب بعيدة عنها حتى ولو كانت في الطرف المقابل من الكرة الأرضية. فترتب على ذلك ظهور تنافس في امتلاك هذه الأجهزة، وسباق في دراسة أنجح وسائل التأثير لا بين الدول وحسب بل بين المؤسسات بعضها بعضاً وبين الأفراد. فنتج عن ذلك ظهور ما يسمّى "علم الإعلام" أو "فن الإعلام" الذي يشترط إتقان ممارسته دراسات أكاديمية نظرية، ودراسات تطبيقية عملية. وبلغ من أهمية هذا العلم أو هذا الفن أنّ الحكومات قد خصّصت له بادىء الأمر إدارات ملحقة بإحدى وزاراتها ثم جعلت له وزارة في جملة الوزارات. وأخيراً صنفت هذه الوزارة على أنها أهم الوزارات شأناً وأخطرها أثراً أو على الأقل من أهم وزارات الحكومة.

****

والواقع أنّ علم الإعلام أو فن الإعلام قد أصبحت له قواعده وأصوله، التي تم وضعها وصوغها بالاستعانة بعدد من المعارف البشرية المتعددة الوجوه من مثل علوم الاجتماع والنفس والتاريخ والاقتصاد والسياسة بالإضافة إلى الجوانب التقنية. كما تعددت الأساليب التي استعان بها الإعلاميون وكان منها القديم السابق على ظهور علم الإعلام أو فن الإعلام كما كان منها اللاحق به. فأصبحت الصحافة وفنونها جزءاً من علم الإعلام كما أصبحت من بعد فنون البث الإذاعي المسموع والمرئي جزءاً أساسياً من هذا العلم. والثابت أنّ الحربين العالميين الأولى والثانية قد لعبتا دوراً خطيراً في تطوير علم الإعلام أو فنه وذلك تحت ضغط الضرورات الأمنية، ودفاعاً عن مصالح البلاد، وسعياً إلى إشاعة الإيمان بالنصر في الصفوف الوطنية داخل الدولة، وإشاعة اليأس والرغبة في الاستسلام في جماعات الدولة المعادية.

****

هذا الواقع التاريخي هو الذي دفع الحكومات والمؤسسات الجامعية والمعاهد العليا الى وضع المناهج الخاصة لتدريس الإعلام.

ولم يقف هذا الجهد عند إنشاء كليات إعلامية متخصصة بل يلح هذا العلم من التوسع والتعقد بحيث أنّ تخصصات فرعية قد ظهرت داخل الجسم الإعلامي فأصبح فريق من الطلاب والطالبات يلتحق بالإعلام الصحفي، وآخر بالإعلام الإذاعي المسموع والمرئي. وعندما اكتشفت المؤسسات التجارية والصناعية والمالية أهمية الإعلام في الترويج لسلعها وفي تنمية رساميلها لم تلبث الكليات الإعلامية أن استجابت لمطالب هذه المؤسسات فخصّصت لها فروعاً إعلامية أطلق عليها إسم "الإعلان" فأصبح الإعلان بسبب ذلك علماً قائماً بذاته له أصوله وقواعده الخاصة به.

****

ولا ننسى أنّ الاهتمام بالإعلام عند الشعوب العربية أصبح جزءاً من استراتيجية الأمن القومي منذ ظهر الخطر الصهيوني الجاثم فوق أرض فلسطين المحتلة أي منذ يوم النكبة 15 أيار مايو عام 1948 م.

ولما كانت معركة العرب ضد الصهيونية معركة شاملة تستوعب كل الأنشطة الدفاعية، العسكرية والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، كما هي معركة على المستوى الدولي، بعد تشابك العلاقات وتداخل المصالح الدولية، وانحياز فريق من الدول الأجنبية إلى الصهيونية، فإنّ من الضروري جداً أن يصبح الإعلام بمعناه الواسع شيئاً في صميم الاستراتيجيات العربية القومية.

وهذا يعني أنّ الاهتمام بالإعلام داخل الوطن العربي هو بعض وجوه الحرب التاريخية التي يخوضها العرب منذ أكثر من ثلاثين عاماً ضد الصهيونية وحلفائها من جانب وحفاظاً على وحدة الصف العربي وتغذية للروح المعنوية عند العرب من جانب آخر.

****

كما نذكر في هذه المناسبة أنّ الأمة العربية إذ تخوض هذه الحرب التاريخية لا تجد نفسها في صميم معركة ضد حرب الشائعات والأكاذيب وفنون الحرب النفسية التي يشنها العدو الصهيوني وحلفاؤه ضدها وحسب بل تجد نفسها أيضاً أمام ضرورة ما يسمى اليوم "التنمية القومية". والمقصود بالتنمية القومية شن حرب فاصلة ضد التخلف الفكري والاجتماعي والنفسي والإداري والسياسي والإقتصادي ذلك أنّ العربي وجد نفسه أمام عدو يفوقه في تنظيمه ووعيه بأساليب البناء المجتمعي والسياسي والإقتصادي، كما يفوقه في التأثير على الدوائر الدولية التي أصبحت تلعب دوراً خطيراً في تقرير مصائر الشعوب. هذا التخلف يفرض على العرب مضاعفة الجهد لتوعية الجماهير بالاستعانة بأحدث أساليب الإعلام وأعمقها تأثيراً في النفوس سعياً إلى تنمية القوى

الايجابية في الأمة منها: الإبداع الفكري والفني، الجودة في الانتاج، المهارة التقنية، تحقيق الاكتفاء الذاتي في الاقتصاد الزراعي والصناعي والتجاري، توثيق الاتصال بالشخصية التاريخية للأمة، تحديث التراث الحضاري بحيث تصبح المكاسب العصرية استمراراً طبيعياً لهذا التراث فيحال دون الإحساس بالاغتراب عن العصر. وبعبارة أخرى: توعية الجماهير بالاستعانة بأحدث أساليب الإعلام وأعمقها تأثيراً في النفوس سعياً إلى تكوين أخلاق حضارية.

****

ونحن لا نأتي بجديد حين نقرر أنّ الأمة لا تربح حروبها بالسلاح الذي يوضع بين أيدي مقاتليها وحسب بل تربح أيضاً بالإضافة إلى هذا كله بحسن استخدام هذا السلاح وإعداد الروافد التي ترفده في قطاعات الحياة العامة وفي مقدمتها: – الإنتاج، والنظام والوعي، والحماسة، والإيمان بالقدرة الفائقة على صنع المصير، كل ذلك يحتاج إلى الإعلام النابض بالحياة، وبالصدق والمهارة في التعامل مع النفوس، ثم التعبئة الجادة لطاقات الأمة الحية.

ولما كان التراث القرآني هو الينبوع الأساسي لوعي الأمة بذاتها الحضارية، ومصدر القيم الكبرى التي يتغذى بها وجدان الأمة العربية فإنّ من طبيعة الدراسات الإعلامية الجادة عند العرب أن تسعى إلى اكتشاف الأساليب والمقاصد الإعلامية في هذا الكتاب السماوي الكريم إلى جانب الأساليب والمقاصد الإعلامية التي تعتمدها الدراسات العصرية بحيث يتمّ نوع من التكامل في وضع الصورة الإعلامية العامة لتحريك الطاقات الكامنة في الأمة. وسنحاول في المقالات القادمة إن شاء الله تسليط الضوء على النشاط الإعلامي المتكامل استناداً إلى القرآن من ناحية وإلى الأبحاث الإعلامية العصرية من ناحية أخرى. والمحاولة هذه تدخل في مفهوم ما دعونا إليه من تحديث للتراث الحضاري بحيث تصبح المكاسب العصرية استمراراً طبيعياً لهذا التراث تجنباً لظاهرة الاغتراب عن العصر.